الحرية..

من أعظم ما أعطى الله الإنسان هو تلك الهبة المنقطعة النظير، والعاجز عن وصفها كل لسان، ألا وهي الحرية، المكّنة صاحبها من تخيُّر الأشياء، واتيان أعماله بما خُوّله من سلطان. وما أحسن صنع البشر، لضنّهم بهذه الدرّة الكريمة، وافتخارهم بهذه المزيّة الفردية الفريدة. وما أضلّ القوم المدّعين ما لا يقبله العقل، ويمجّه المنطق، وهو خلو المرء من هذه الصبغة الجزيلة القدْر والفائدة.

على ان كثيرين من أبناءِ هذا العصر، ان لم ينكروا الحرية نكراناً تاماً، فقد حادوا عن جادة الصواب في ما يرجع إلى ماهيتها وطريقة استعمالها. وقد استدرجهم إلى هذه الوهدة بعض الأمثال المعوجة والذهنية العامة، ونجاح مجتمعات النّاس في ميدان الماديات، فطمحت النفوس المتهورة، ولا سيما في أعلى الهرم المتداعي، إلى إساءة العمل، بإسم الحرية، والمغالاة في ادّعاء الاستقلال الذاتي، أو التسامح المريب!

الجدير بذوي الحجى والنهى أن يستطلعوا كنه هذه المزية الفارقة بين البشر عن سائر الخلائق الأرضية، ليقفوا على ما هي عليه من الكمال، فيحسنوا ممارسة أعمالها، غير مفرطين ولا مفرّطين، متذكرين ان خير الأمور الوسط، وحب التناهي غلط. وما من وسيلة أنجع لبلوغ المرام، في هذا المقام، من تمحيص نظرية الحرية وحقيقتها بذاك المحك الفعّال، محك الدين القويم. وإذ كان أعداء الدين أو المعكّزين عليه قد تاهوا في بيداء الضلال والتضليل، منهم بنكرانهم وجود الحرية، وبعضهم بجهلهم أو تجاهلهم ماهيتها، وغيرهم بادّعائهم ان الدين مناهض لها.. لاقَ بنا ان نستفتئ الدين أو الإيمان أو الضمير أو حتى العقل السليم، في كل قضية من هذه القضايا!

رحمنا الله بعنايته اليقظى!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه